ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٧ —

أسرى إلى الحب !

أسرى إلى الهوى !

بل أسرى إلى الله الذى يقلّب القلوب

* * *

كانت ليلتى فى قطار البصرة ليلة شاتية ، وما كنت أخذت أهبتى لمكافحة البرد فى قطار البصرة ، وهل كنت أعلم أن البرد فى قطار البصرة له تواريخ ؟

لقد عشت دهرى مفتوناً بشبابى ، لأنى نشأت فى أسرة كان أكثر رجالها من المياليق

وكذلك زيّن لى الفتون أن أمتطي قطار البصرة فى ليلة شاتية بلا غطاء

دخلت البصرة محموماً ، دخلتها أهذى هذيان المحمومين

ولكنى تذكرت فجأة أن سعادة السيد عبد الجبار الراوى حاكم الحلة كان كلفنى تبليغ التحية إلى سعادة الدكتور عبد الحميد الطوخى مدير الصحة بالبصرة ، وتذكرت أن هذا الطبيب مصرى صقله العراق ، وأنا على كل حال أحب المصريين ، فقد شاع فى بقاع الأرض أنى مصريّ ، ومن واجبى أن أحب مصر وفاء أو رياء .

ذهبت محموماً للتسليم على هذا الطبيب فكاد يطير من الفرح بلقائى . فقلت له : هوّن عليك ، فما جئت إلا لأبلغك تحية حاكم الحلة ، الحلة الجميلة التى تشبه شبين الكوم حاضرة المنوفية

وما هى إلا لحظة حتى نقلنى هذا الطبيب إلى حاكم البصرة ، وإلى مدير المعارف بالبصرة ، وكان اليوم كله طوافاً بما فى البصرة من غرائب وأعاجيب

وعند الغروب لقينى الدكتور عبد المجيد القصاب فقال : ارجع بنا إلى بغداد . فقلت : لا أستطيع . فقال : إنك ستلقى كلمة مصر فى تأبين المغفور له ياسين باشا الهاشمى ، واسمك فى منهج الاحتفال

فقلت : أعرف ذلك ، وأفهم قيمة الشرف الذى أظفر به فى حفلة يخطب فيها فخامة رئيس الوزراء ، وفخامة نورى باشا السعيد ولكنى محموم ، وما أستطيع أن أعاقر البرد فى قطار البصرة ليلتين متواليتين

وأرسلت برقية اعتذار ، وأويت إلى فراشى بالفندق أعانى الغربة والمرض والحب . وشاع فى البصرة أنى مريض ، فتفضل حاكم البصرة ومرّ بالفندق فترك لى كلمة عطف ، وتفضل مدير الصحة بعيادتى فأزعجه حالى

وفى الصباح أفقتُ ، فكان أكبر همى أن أزور قبر أستاذى فى التصوف ، مولاى الحسن البصرى ، ولكن كيف ؟ لقد قضيت ليلتى محموماً وقضت السماء ليلها فى بكاء

وأويت مرة ثانية إلى الفراش لأن المطر جعل ذهابى لزيارة قبر الحسن البصرى غرضاً عزيز المنال

وطلبت الجرائد لأتلهى بها فرأيت فى جريدة « الناس » وجريدة « الثغر » أنى سألقى محاضرة بنادى البصرة ، فذهبت فى الموعد وتكلمت نحو خمسين دقيقة عن ماضى البصرة ، ثم مضيت إلى الفندق فأخذت أمتطى لأعاقر البرد من جديد فى طريق إلى بغداد

هل يعرف قارئ هذه المذكرات كيف يشقى من يقضى ثلاث عشرة ساعة فى القطار وهو محموم ؟

علم ذلك عند الأستاذ النبيل الذى يدير إحدى المدارس فى بغداد فقد أخرج ما فى حقائبه من أغطية وملابس وألقاها فوق جسمى لأنجو من البرد الذى قتل أخانا أبا الدرداء

صرعنى البرد فى الذهاب والإياب ، وأضرعتنى الحمى فلم أدخل بغداد إلا وشفتى يزينها عُقْبُول ، والعقبول هو التشقق الذى يصيب الشفاه من وهج الحمى ، ومنه جاءت عقابيل الحب ، وكذلك اجتمعت العقابيل فى قلبى وشفتى ، وهو أول حادث يقع فى التاريخ

كان هذا العقبول مزعجاً ، فقد كان كل من يرانى يحسب أنى أصبت بأخت بغداد ؛ ولو صح ما حسبوا لكانت نكبة ، فأخت

بغداد إذا أصابت الشفة كانت نذيراً بالحرمان من جميع أخوات بغداد

ومن أجل هذا العقبول حبست نفسى فى المنزل أسبوعين قضيتهما فى إنجاز كتاب « عبقرية الشريف الرضى »

ولكن هذا الحبس كانت له أيضاً عقابيل ، فقد اشتغلت بالسياسة العراقية مع أنى طلقت السياسة المصرية منذ أعوام طوال

وتفصيل ذلك أن مجلس النواب كان يستمد لدرس معاهدة الحدود بين العراق وإيران ، وكان شط العرب محور النزاع ، شط العرب الذى تغنّيت به فى البصرة ونشرت ثنائى عليه جريدة البلاد

كان العراق فى فَوْرة ، وكنت فى فورة ، وما أشق من يضطرم صدره تحت سماء العراق !

ومضيت إلى رئيس الكتاب بالمجلس النيابى ، وهو صديق عزيز ، فطلبت تذكرة لحضور تلك الجلسة التاريخية . وكنت أول من دخل شرفة المجلس فى ذلك اليوم ، فهالنى أن أرى خريطة شط العرب مرقومة بالطباشير على لوحة سوداء

كان الجو كله دخاناً فى دخان ، وكنت أكاد أختنق

ثم وقف وزير الخارجية يخطب ، وما كان أروعه فى ذلك اليوم ، فقد بدد ما ران على صدرى من ظلمات

وتدفق الخطباء بين معارض وموافق ، وكانت جلسة برلمانية حقاً وصدقاً . كانت جلسة صريحة أبدى فيها النواب آراءهم بألفاظ لا مداورة فيها ولا التواء

خطب وزير الخارجية خطبتين فى ذلك اليوم وكان بالتأكيد أشجع الخطباء . ولن أنسى أنه قال : كان فى يقينى أن أقترح جعل هذه الجلسة سرية ، ثم رأيت أن تكون علنية ليرى الجمهور بعينه أن الحكومة حريصة على أرض الوطن كل الحرص

وسألت أحد الصحفيين عن هذا الرجل فقال : أما تعرفه ؟ هذا زميلك

فقلت : وكيف كان زميلى ؟

فقال : هو سوربونىٌّ مثلك ؛ هذا توفيق باشا السويدى خريج السوربون

السوربون ! السوربون !

رعى الله عهدى يوم كنت أجول فيها وأصول !

* * *

خرجت من مجلس النواب منشرح الصدر . ولقينى أحد النواب فقال : كيف رأيت ؟ فأجبت : رأيت وجه الحق . ولكن آذانى أن تكون حجة الموافقين على معاهدة الحدود مقصورة على أن إيران جارة عزيزة . فما الذى كان يضيركم لو قلتم إن إيران أمة إسلامية ، وإن المسلمين يجب أن يتسامح بعضهم مع بعض ، نحن مسئولون عن الأخوة الإسلامية أمام الله وأمام التاريخ . مسئولون أمام الله الذى يكره أن يبغى المسلمون بعضهم على بعض ، ومسئولون أمام الماضى الجميل الذى تعاونت فيه الأمة العربية والأمة الفارسية فأنجبتا أشرف ذخيرة من ذخائر الأدب والتشريع . إن العداوة بين العرب والفرس أجج جذوتها ناس من الأدباء ، فما الذى يمنع من أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين فيخلقوا الحب بين إيران والعراق ؟

إن فرنسا لها مدرسة لنشر اللغة الفرنسية فى إيران

فما الذى يمنع أن تقوم الحكومة المصرية أو الحكومة العراقية بإنشاء مدرسة لنشر اللغة العربية فى إيران ؟

حدّق النائب فى وجهى طويلاً وقال : هذا رأى وجيه ، ولكن الظروف ...

فقلت : أى ظروف ؟ إن أوربا يسرها أن نتمزق . وهى قد استطاعت بالفعل أن تؤلب المسلمين بعضهم على بعض وأن تضرب العرب بعضهم ببعض . وإذا استمر الحال كذلك ربع قرن فلن تجد من يردّ عليك السلام فى مصر ، ولن أجد من يردّ علىّ السلام فى العراق

* * *

الحمد لله . تم الصفاء بين إيران والعراق ، ومرت معاهدة الحدود بسلام ، والله المسئول عن هداية العرب والمسلمين

ولكن شط العرب الذي عجز عن تكدير السلام بين العراق وإيران استطاع أن يكدر السلام بينى وبين ليلاى

كنت انقطعت عن زيارة ليلى إلى أن يذهب العُقبول الذى شوه شفتى ، فاستوحشت ليلى لغيابى ، وأرسلت ظمياء للسؤال عنى ، فطار بى إليها الشوق ، فلما وقع بصرها على شفتى قالت : ما هذا الذي بشفتك ؟

فأجبت : هذا عقبول

فقالت : أما آن لك أن تتوب ؟

فقلت : ما ذا تعنين ؟

فأجابت : ما هذا معقولا يا حضرة الدكتور

فقلت : وما هو ؟

فأجابت في سخرية : هذه عضة سمكة من أسماك شط العرب !

فأقسمت بالله والحب أنني ما حاولت الصيد في شط العرب حتى تعضني السمكات

وطالت اللجاجة بيني وبين ليلى، وحملني الغضب على أن أقول: اسمعي ، أنا مستعد لما هو أخطر من ذلك

فقالت : إيش لون ؟

فقلت : أنا مستعد لتقبيل ثغر الحية

فقالت وعيناها تقذفان بالشرر المتوقد : لن تقبل ثغر الحية .

فانزعجتُ وعرفتُ أنه وعيد

وانقضت السهرة في كلام تافه ، وعند الانصراف لم تسألني ليلى متى أرجع ؟

* * *

آه ، ثم آه !

كانت ظمياء خدعتني حين قالت إنها وصلت مع ليلى إلى القاهرة في آذار شهر الأزهار والرياحين ، فقد عرفت أن آذار القاهرة غير آذار بغداد . عرفت بالتجربة أن العراقيين على حق حين يحكمون بأن « آذار ، شهر الزوابع والأمطار » فقد قضيت هذا الشهر في كروب وأحزان

ولكن أي كروب وأي أحزان ؟

كنت أذهب لتأدية الدروس في الصباح ، وكنت أذهب بعد العصر إلى المطابع لأصحح تجارب كتابي ، ثم أرجع قبيل المغرب إلى البيت لأعاني وحشة الليل ، الليل الهائل ، ليل بغداد

وزاد الكرب أني انقطعت انقطاعاً تاماً عن المصريين والعراقيين

انقطعت عن المصريين للسبب الذي شرحته في كتاب « ذكريات باريس » وهو سبب يؤذيني أن أسجله مرة ثانية في هذه المذكرات ، وأنا في الواقع أنسى مصر حين أفارق مصر ، لأني أفهم أن مصر حين ترسلني إلى باريس أو بغداد لا تريد إلا أن أفهم باريس أو بغداد . ومصر لا تلعب ، فهي تحب لأبنائها أن يفهموا روح الغرب وروح الشرق ، وأنا فيما أزعم مصري تحبه مصر ، وإن كانت لا تلقاني بغير العبوس

وانقطعت عن العراقيين لأن حسابي عندهم أثقل من الجبال .

ولن أنسى السهرة التي قضيتها في منزل السيد محمد حسن الشبيبي فقد قضيت ثلاث ساعات وأنا أندفق كالسيل دفاعاً عن الآراء التي أذعتها في مؤلفاتي ، وآذاني ذلك الجهد فرضت يومين

أين أذهب ؟ لا أدري أين أذهب

كنت أدّخر ليلى لأيام الشقاء، وهي الآن في تغضب وتعتب.

كانت ليلى تقول حين أهمّ بالخروج : فراقك صعب سيدي ،

وهي اليوم لا تقول شيئاً من ذلك ولا تسأل متى أرجع

كانت ليلى تقول : «ليش ماجيت عندنا من زمان يا دكتور؟»

وهي اليوم تسأل فيما أظن — وبعض الظن إثم — متى أرحل عن بغداد

عافاك الله يا ليلى وأسبغ عليك نعمة العافية !

* * *

تباركت ياربي وتعاليت

فما عانيت في حياتي بلاء إلا رأيت ما يصحبه من محمود العواقب.

فبفضل تغضب ليلى وتعتبها عرفت سراً من أغرب الأسرار ، عرفت كيف ظل العراقيون أكثر من ثلثمائة سنة يغنون هذين البيتين :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليّ الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح

لقد هدني غضب ليلى فلم أعد أعرف للحياة أيّ مذاق ، وجزعت على ما صرت إليه أشدّ الجزع ، فهذا الربيع يفيض على أرجاء العراق أرواح الابتهاج والانشراح ، وقلبي وحده يعيش بلا ربيع

وجاء (نيسان ، شهر الزيادة والنقصان) فلم يهشّ له قلبي ، وبقيت أعاني ألم الوحشة والانفراد

كنت أستطيع غشيان بعض الملاهي لأنسى همومي وما في ذلك ما يضيرني ، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني يجلس في قهوة متاتيا بالقاهرة ، يوم كان الجلوس في مثل تلك القهوة شيئاً

غير لائق ، وكان يقول : من حق الفيلسوف أن يجلس فى قهوة متاتيا ، وأنا دكتور فى الفلسفة ومن حق أن أجلس فى قهوة متاتيون !

ولكن ملاهي بغداد فيها أغانٍ وألحان ، وقد صرت بعد غضب ليلى مرهف الحس إلى حد مفزع ، وأخشى أن أسمع الغناء مع الناس فتفضحنى عندهم دموعى

وكان يتفق أن أسمع المذياع من حين إلى حين فأتوهمه يدمدم :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح

ومن غريب ما وقع أن غضب ليلى قوبل بعوض مزعج هو كرم أهل العراق

كنت أدخل المطاعم للغداء أو للعشاء فأجد من يدفع عنى من حيث لا أعرف . وكثر ذلك حتى أضجرنى ، وما كنت بخيلاً حتى أنكر الكرم ، ولكن قلبى كان يهتف بقول الزميل القديم :

آل ليلى إن ضيفكمُ واجد بالحى مذ نزلا
أمكنوه من ثنيتها لم يرد خمراً ولا عسلا

وفى حومة من هذه الحرب الوجدانية سمعت أن جماعة من الأطباء كتبوا يشكونى إلى الجمعية الطبية المصرية ، وهم يزعمون أننى حنثت فى اليمين ، فقد أقسمت كما أقسموا ألا أفشى سراً لمريض ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن مرض ليلى أصبح معضلة دولية، ولكن هل يعقل من فى قلوبهم مرض ؟

آه ثم آه من حقد الزملاء

* * *

لم تسألنى ليلى متى أرجع ، ولكن لا بدّ أن أرجع

وهل هنت على نفسي إلى هذا الحد ؟

ما هنت على نفسى . فقد رعانى الله فمشت طول حياتى عزيزاً ، ولكن هذه فرصة أحتبر فيها أخلاقى . هذه فرصة ثمينة قد لا تعود . إن ليلى تحقد علىّ ، وتتهمنى بخيانة الحب ، ومن واجبي نحو الأخلاق أن أرحم من يرتاب فى أخلاق ، فما ارتاب فى أخلاق غير الضعفاء والمساكين

ولكن ليلى لها تاريخ ، وأشقى الناس من يعشق امرأة لها تاريخ

وتاريخ ليلى ابتدأ فى القاهرة واستفحل فى بغداد ، ومن الواجب أن أكون على بينة من تفاصيل ذلك التاريخ ، وعلم ذلك عند ظمياء

* * *

— إيش لونك يا دكتور !

— أعانى ظلام الحب وظلام الليل ، وإيش لون ليلى ؟

— إستراحت لمكايدتك فدبت فى روحها العافية

— وكذلك أبى الأصدقاء لهدموني يا ظمياء

— لا تندم على ما صنعت من جميل

— سمعت وأطعت يا بنيتى الغالية ، ولكن أحب أن نرجع إلى حديث ليلى مع الضابط عبد الحسيب

فانشرح صدر ظمياء وأخذت تقول ...

« للحديث شجون » زكى مبارك

حيـــاة الرافعى

كتاب يتهيأ لإصداره الأستاذ محمد سعيد العريان صديق الرافعى وتلميذه وكاتب وحيه . وهو كتاب فريد فى نظمه وأسلوبه : يتحدث عن حياة الرافعى ونشأته وثقافته وحبه ، والعوامل التى أنشأته فى الأدب ، والمؤثرات التى أثرت في إنتاجه الأدبى

وهو فى أسلوبه ينحو منحى جديداً فى أدب التراجم ، يقرؤه قارئه كما يقرأ قصة محكمة النسج متتابعة الحوادث مسلسلة الفكرة ؛ تُقرأ للتسلية وإمتاع النفس كما تقرأ للأدب والتاريخ .

ثم هو فوق ذلك سجلّ لطائفة من أدباء الجيل ، يكشف عن كثير مما يهم قراء العربية أن يعرفوه من تاريخهم الأدبى

وتبلغ صفحات هـذا الكتاب نحو ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط

وسيكون ثمن النسخة منه بعد الطبع ١٥ قرشاً ، ولمن شاء الاشتراك فيه قبل الطبع أن يدفع ١٠ قروش فقط ، يدفعها إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه بشبرا مصر ، شارع مسرة ، رقم ١٦